# موقف العلماء من ظاهرة التصوف الفلسفي
# ابن مسرة الجبلي (٣١١هـ) نموذجًا

إعداد
الدكتور مُحَمَّد أحمد عبد المطلب عزب
الأستاذ المساعد بقسم الدعوة وأصول الدين
جامعة المدينة العالمية

**خلاصة البحث:**

هذا بحث يتناول باكورة التجربة الصوفية في الأندلس، وأول من افترع بكارتها هناك، ولئن تأخر فتح الأندلس عن قلب العالم الإسلامي قرنًا، فلقد جاءت التجربة الأندلسية كذلك متأخرة بذات القدر تقريبًا، ولقد كانت بدايات التصوف الأندلسي ليست كبداياته المشرقية؛ إذ نستطيع القول: إنه بدأ من حيث انتهى التصوف المشرقي آنذاك، فإذا كان التصوف قد نشأ نهرًا صافيًا على يد رواده الأوائل، تنتابه موجات المد والجذر، حتى عتت أمواجه بعد إذ، وتعكّر صفوه على يد أمثال الحلاج وغيره، فإن التصوف الأندلسي بدأ عاتيًا، غير أنه لم يصل إلى ما وصل إليه أمثال الحلاج إلا بعد زهاء خمسة قرون من فتح الأندلس، إلا أن التجربة الأندلسية على بكارتها وغزارتها فإنها ما تزال غضّة طريّة، جاء هذا البحث ليعرض لجانب منها، كان من أهم ما خلص إليه ضرورة العناية بالتراث الأندلسي، ودراسة موقف الفقهاء من تصوف ابن مسرة، وأثر الفقهاء في العامة والحكام في الأندلس.

**الكلمات الدلالية:**

أندلس- تصوف - مسرة - فقهاء - مريدون - فلسفة- مشرق- الحروف - الاعتبار.

**مقدمة:**

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على النبي الأمين، صلى الله وسلم وبارك عليه إلي يوم الدين، أما بعد:

الأندلس هو ذلك الفردوس المفقود، الذي ما يزال المسلمون يتباكون على أطلاله الذاهبة، فهو حضارة مكتملة الأركان، كان فيها الحكام والعلماء وأصحاب الفنون والشعراء وأصحاب الحرف بأصنافهم المختلفة، ظهرت فيه الاتجاهات التي ظهرت بالمشرق الإسلامي، عاش علماؤه ومواطنوه يفخرون به، ولا يبغون به بدلًا، وحين أفلت شمسه كاد ثراه يبكي كلمة التوحيد التي خفتت من الربوع، بل جاء من ليس من أهل التوحيد من بكى هذا النهر الذي جفّ وتلك الشمس التي غابت.

ولئن أكلت الأرضة منسأته التي ارتكن عليها في ثرى غرناطة، فخر ميتًا، فإن هناك من يرى أنه خرّ مغشيًا عليه وسيفيق في يومٍ ما!!

لست بصدد رصد ظاهرة التباكي على الفردوس المفقود، ولكني بصدد الولوج إلى قلب المجتمع، لنقف كيف نخر فيه السوس حتى صارت حضارته قاعًا صفصفًا، وصار بعض رجاله كأعجاز النخل الخاوية.

في هذه الورقات أعرض لظاهرة التصوف كظاهرة روحية ظهرت في جنبات المجتمع الإسلامي قديمًا، كان فيها الطيب والأجادب والقيعان، وكان لأهل العلم موقف مع كل طائفة أعرض لنموذج أندلسي منها هو ابن مسرة القرطبي (٣١١هـ) والذي أبدأ معه من خلال التمهيد التالي:

**تمهيد:**

لا يختلف المؤرخون حول الدور الذي لعبه مُحَمَّد بن مسرة(٣١١هـ) في التاريخ السياسي والفكري في الديار الأندلسية، وقد احتفى به عدد من المؤرخين، وعرضوا لبعض جوانب حياته، فالكتابات التي تناولته عرضًا كثيرة، وهي غالبًا تأتي في ثنايا الأبحاث والدراسات – خاصة الاستشراقية منها.

يُعدُّ ابن مسرة أول شخصية محورية في تاريخ التصوف الأندلسي(١)، امتد تأثيره في أتباعه الذين كونوا مدرسة، وكان له مريدون ولمدرسته حضور بالغ الأثر في هذا الوقت.

استثار ابن مسرة –بأفكاره الوافدة على المجتمع– السلطة وأقلق مضاجعها، كما استثار الفقهاء، وأهل العلم في الأندلس.

ولأهمية ابن مسرة وخطورة أمره؛ صار فكره معلمًا يذكر في تراجم الأعلام ممن تشربها أو ردّ عليها، وقد أصبح من غير المستغرب أن تقرأ في تراجم كثير من علماء الأندلس: أن له ردًّا على ابن مسرة، أو ألَّف في الرد عليه، وقد تطرق الأمر إلى أن يذكروا في بعض التراجم: أن فلانًا كان من أتباع ابن مسرة.

**إشكالية البحث:**

التجربة الأندلسية لا تزال زاخرة العطاء، ولكن يبقى الاتجاه الصوفي على يد رواد التصوف الأوائل في الأندلس، وكيف واجهها فقهاء المالكية الأندلسيين تحتاج إلى من يميط عنها اللثام من كل الجوانب، ذاك أن أكثر ما يوقف منه عليها ضاع بعضه ووصل القليل منه، وتبقى كتب التراجم هي الركيز الأهم في هذه الدراسة، كما تبقى العلاقة بين الفقهاء والصوفية تحتاج إلى رصد كلما بدا موقف يتطلب الاشتباك بينهما.

**أسئلة البحث:**

يسعي البحث ليجيب من خلال فصوله على عدة أسئلة، أهمها:

١– من الشخصية المحورية التي ابتدأت التصوف في الأندلس؟

٢– ما أهم الأفكار التي كانت عليها تلك الشخصية من خلال ما ألفت ومن خلال

(١) سيأتي تفصيل هذا لاحقًا.

ما كُتب عنها؟

٣- ما مآل العلاقة بين هذه الشخصية والطبيعة المحافظة لفقهاء الأندلس؟

**أهداف البحث:**

**يهدف البحث إلى:**

٤- التعرف على نشأة التجربة الصوفية في الأندلس.

٥- الأفكار التي صاحبت نشأة التجربة الصوفية هناك.

٦- رصد لأهم جوانب العلاقة بين الفقهاء وشخصية التصوف ومريديها.

**الدراسات السابقة:**

من أهم الدراسات السابقة دراسة الدكتور: مُحَمَّد كمال جعفر؛ حيث قدم بمقدمة لكتاب الاعتبار الذي حققه لابن مسره ضمن كتابه "في الفلسفة الإسلامية".

كانت هناك كتابات في ثنايا بعض المؤلفات، كما في دورية الحضارة الإسلامية في الأندلس جـ٢، إلا أنها عتمدت بشكل كبير على كلام الدكتور كمال جعفر؛ حيث تعد دراسته رائدة وانفردت بتحقيق مخطوط ابن مسرة.

كذلك كتب الدكتور العدلوني الإدريس كتابا عن ابن مسرة هو ((مدرسة ابن مسرة)).

**منهج البحث:**

اتبعت في هذا البحث المنهج الوصفي التحليلي، في تتبع الشواهد وتحليلها لمحاولة الوقوف على طبيعة التصوف والصراع الذي نشأ بين الفقهاء ومتفلسفة الصوفية.

**هيكل البحث:**

اشتمل هذا البحث على:

مقدمة، أعقبتها **تمهيدًا، ثم إشكالية البحث، وأسئلته، وأهدافه، والدراسات السابقة، والمنهج المتبع.**

**وقد تضمن البحث فصلين:**

**الفصل الأول: ابن مسرة؛ صوفيته وفلسفته، تضمن ستة مطالب:**

المطلب الأول: ترجمة ابن مسرة .

المطلب الثاني: أفكار ابن مسرة الفلسفية.

المطلب الثالث: الوحي والعقل عند ابن مسرة.

المطلب الرابع: حكمة الإشراق وأسرار الحروف عند ابن مسرة .

المطلب الخامس: أتباع ابن مسرة الذي عني المترجمون بذكرهم .

المطلب السادس: أثر ابن مسرة في متصوفة الفلاسفة من بعده.

**الفصل الثاني: علماء الأندلس في مواجهة ابن مسرة وصوفيته، تضمن ثلاثة مطالب.**

المطلب الأول: مجابهة العلماء لابن مسرة وأفكاره.

المطلب الثاني: ثناء المترجمين على من رد على ابن مسرة.

المطلب الثالث: رد المشرقيين على ابن مسرة .

**ثم خاتمة البحث وأهم نتائجه وتوصياته.**

## الفصل الأول: ابن مسرة صوفيته وفلسفته

### المطلب الأول: ترجمة ابن مسرة:

نسبه: هو أبو عبد الله، مُحَمَّد بن عبد الله بن مَسَرَّة بن نجيح، القرطبي[١]، سَمِعَ: من أبيه، ومن مُحَمَّد بن وضَّاح، والخُشَنِيّ.

ذكر المترجمون أن ابن مسرة رحل إلى المشرق، وأخذ علومًا عن أهله، قال الحميدي (٤٨٨هـ): تردد بالمشرق مدة، ثم انصرف إلى الأندلس [٢].

**مؤلفاته:**

المتابع للأثر الكبير الذي تركه ابن مسرة في مسيرة الفكر الأندلسي يجد أنه لم يصاحبه مؤلفات ضخام وضعها ابن مسرة لأتباعه والمتابعين له؛ كتلك التي تبلورت في ذلك العصر، فبينما نجد الطبري (٣١٠هـ) يكتب تفسيره في هذه المجلدات الضخام التي هي كالمختصر لما كان يبغيه[٣]، والقاضي عبد الجبار المعتزلي (٤١٥هـ) يكتب "المغني" في مجلدات وأسفار ضخام، نجد ابن مسرة يكتب رسائل في ورقات قليلة يضيع بعضها ويبقى القليل منها.

وكتابه الأول هو "التبصرة"، قال ابن الأبار (٦٥٨هـ) في "التكملة" في معرض كلامه على ابن مسرة: (لما وضع ابن مسرة كتاب " التبصرة "...) [٤].

وله كتابان آخران هما: "الاعتبار" و"خواص الحروف وحقائقها وأصولها"، وهما مفقودان[٥]،

---

(١) انظر: تاريخ علماء الأندلس: ٣٩/٢، ترجمة (١٢٠٤)، مما ينبغي التنبيه له أنه قد اختلطت ترجمة مُحَمَّد بن مسرة بوهب بن مسرة عند الحافظ الذهبي في «سير أعلام النبلاء»: ٥٥٧/١٥، ٥٥٨، وفي تذكرة الحفاظ: ٧١/٢، وميزان الاعتدال: ٤٧/٤، ما يشي أيضا بأن الوهم لازمه في ترجمته.

(٢) انظر: تاريخ علماء الأندلس: ٦٨٧/٢.

(٣) انظر مقدمة التحقيق: ١٧/١.

(٤) انظر: تكملة الصلة: ٢٣٣/١، ٢٣٤.

(٥) قلت: كتاب "الاعتبار" مفقود على اعتبار الاختلاف في مسمى كتاب التبصرة، فلو صح كون التبصرة هو الاعتبار على ما ذهب إليه د. كمال جعفر، فيكون المفقود هو «التبصرة » وليس «الاعتبار»، أو يكون مسميان لكتاب واحد، وعدم اطلاعي على نسخة الاعتبار المخطوطة يجعلنا نسلم بكلام د. جعفر، وإن كان النص في ذاته يعطي خلاف ما رجح.

وهناك كتاب آخر أشار له الإمام القرطبي (٦٧١هـ)[١] في كتابه "التذكرة" قائلًا: (ذكر أبو عبد الله مُحَمَّد ابن مسرة الجبلي القرطبي في كتاب« التبيين » له...)[٢].

لكن مما ينبغي الإشارة إليه أن ابن مسرة الجبلي كانت له طريقة في وضع الكتب فريدة، ويبدو أنه لحظ غرابة أفكاره وسط المجتمع الأندلسي فحرص على أن يخفي مؤلفاته، وتكشف هذه الواقعة التي ذكرها ابن الأبّار (٦٥٨هـ) عن ذلك؛ حيث يقول: ( لما وضع ابن مسرة كتاب "التبصرة" لم يكن يخرج كتابًا حتى يتعقبه حولًا كاملًا، احتال حيّ[٣] فيه حتى خرج إليه دون إذنه ورأيه، فانتسخه ثم صرف الأصل وأتى بالنسخة إلى ابن مسرة، فأراه إياها وقال له: تعرف هذا الكتاب ؟ فلما تصفحه، قال له: لا نفعك الله به، ولم يخرج كتاب "التبصرة" بعد ذلك إلى أحد)[٤].

هذا ما وقفت عليه فيما قيل إنه من مؤلفاته.

**وفاته:**

توفي ابن مسرة عام (٣١٩هـ)، قال ابن الفرضي (٤٠٣ هـ): (وقال بعضهم: توفي يوم الأربعاء بعد صلاة العصر، ودفن يوم الخميس بعد صلاة العصر، لخمس خلون من شوال سنة تسع عشرة وثلاثمائة)[٥].

(١) هو: مُحَمَّد بن أحمد بن أبي بكر، القرطبي، المفسر، من مؤلفاته: جامع أحكام القرآن، و" التذكرة بأحوال الموتى وأمور الآخرة " استقر بمصر بمنية ابن خصيب وتوفي بها سنة (٦٧١هـ). انظر: ترجمته في: الديباج المذهب:٣١٧/١، والأعلام: ٣٢٢/٥.

(٢) انظر: التذكرة، للقرطبي، ص ٣٩٥.

(٣) هو: حي بن عبد الملك، ترجم له ابن الأبار، ولم يذكر تاريخ وفاته.

(٤) انظر: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، ط دار الفكر للطباعة، ١٤١٥: ٢٣٣/١.

(٥) انظر: تاريخ علماء الأندلس: ٦٨٩/٢.

**المطلب الثاني: أفكار ابن مسرة الفلسفية:**

يعتبر ابن مسرة زعيم مدرسية روحية لها مريدون وأشياع، وليس هو بالمؤلف الذي يبث علمه في مطويات ومسطرات كبرت أم صغرت، كما أنه ليس صاحب حلقة علمية يصدر الإجازات إلى الطلاب بعد سماعهم كتابًا من تأليفه أو من تأليف غيره، بل كان ذا منهج تربوي ينتسب له من دان بطريقته، فقد كانت دعوة ابن مسرة الصوفية تسير في اتجاهين:

الأول: هو الدعوة من خلال الخطابة والوعظ.

حيث كان ابن مسرة واعظًا وخطيبًا يعتمد الخطابة والوعظ وسيلة لتوصيل الأفكار وبثها، وهي طريقة مألوفة في كل زمن، بله هذا الزمن الذي كان فيه ابن مسرة، يقول ابن الفرضي (٤٠٣ هـ): (...كان له كلام مثل كلام ذي النون المصري والنهرجوري)[١].

ويقول آنخال جنثالث: (الذي لا شك فيه أنه كانت لهذه الجماعة طريقتها، وأنها كانت تشبه الطرق الصوفية التي سار عليها ذو النون الإخميمي المصري والنهرجوري)[٢].

وهذا ربما استقر عليه الباحثون في توصيف فكر ابن مسرة والتعرض له، قال بعض الباحثين: (إن فكر ابن مسرة عبارة عن تركيب للمبادئ المعتزلية المتعلقة بالوحدة الإلهية والعدل الإلهي مع النظريات والتطبيقات الصوفية كما عرضها ذو النون والنهرجوري)[٣].

ولكن من المناسب أن ندلف إلى أفكار ابن مسرة من خلال ما سطّره ببنانه لنقف على جزئيات مذهب ودعائمه.

فقد كان لابن مسرة جزئيات شكلت عموم مذهبه؛ حيث لم تكن الثقافة التي تلقاها عمن لقيه من علماء الكلام، والصوفية هي وحدها التي كونت آراءه وعقيدته، بل كان له اشتغال بكتب الفلاسفة، فقد ذكر القفطي(٦٤٦هـ)[٤] أن ابن مسرة اتهم بالزندقة لإكثاره

(١) انظر: تاريخ علماء الأندلس: ٦٨٧/٢.

(٢) انظر: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة د حسين مؤنس، ص ٣٢٨.

(٣) انظر: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير د سلمى الخضراء، مركز دراسات الوحدة العربية: ١٠٩٠/٢

(٤) هو: أبو الحسن، علي بن يوسف القفطي، وزير، مؤرخ، من الكتاب. ولد بقفط بمصر، وسكن حلب، أطلق عليه لقب "الوزير الأكرم" من تصانيفه "إخبار العلماء بأخبار الحكماء" توفي سنة (٦٤٦هـ)، انظر: ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ٢٢٧/٢٣، والأعلام: ٣٢/٥.

من النظر فِي فلسفة (أبيذقليس) ولهجه بِهَا، وتردد فِي المشرق مدة، واشتغل بملاقاة أهل الجدل وأصحاب الكلام والمعتزلة، ثُمَّ عاد إِلَى الأندلس، وأظهر النسك والورع، واغترّ الناس بظاهره، واختلفوا إِلَيْهِ وسمعوا منه، ثُمَّ ظهروا عَلَى معتقده وقبح مذهبه، فانقبض عنه بعض، ولازمه بعض ودانوا بنحلته، وَكَانَ لَهُ لسان خلوب يتوصل بِهِ إِلَى مراده)[١].

ثم ذكر القفطي مذهب (أبيذقليس) فقال: (المشتهر من أمر أبيذقليس أنه أول من ذهب إِلَى الجمع بَيْنَ معاني صفات الله تعالى، وأنها كلها تؤدي إِلَى شيء واحد، وأنه إن وصف بالعلم والجود والقدرة فليس هو ذا معان متميزة تختص بهذه الأسماء المختلفة، بل هو الواحد بالحقيقة الَّذِي لا يتكثر بوجه مَا أصلًا، بخلاف سائر الموجودات فإن الوحدانيات العالمية معرضة للتكثر إما بأجزائها وإما بمعانيها وإما بنظائرها، وذات الباري –سبحانه وتعالى– متعالية عن هَذَا كله، وإِلَى هَذَا المذهب فِي الصفات ذهب أبو الهذيل مُحَمَّد بن الهذيل العلاّف).[٢]

جمع ابن مسرة إذا بناء على كلام ابن الفرضي (٤٠٣هـ) المتوفى بعده بين الجدل الكلامي الذي ضم له كلامًا رائقًا من كلام صوفية المشرق، كما أنه استلهم بعضًا من جوانب الفلسفة المنسوبة إلى (أبيذقليس) بناءً على كلام القفطي(٦٤٦هـ).

هذه الأفكار والنظريات المسرية كانت أفكارًا ونظريات فلسفية ربما قال بها بعض الفلاسفة المتكلمون، وكان بعضها أقرب لفكر المعتزلة والفلاسفة من غيرهم، كقوله في القَدَر، المشابه لقول المعتزلة، وكالقول بثنائية العلم الإلهي، وتدبير العرش للعالم التي تشاكل ما عند ابن عربي[٣].

وقد نسبت لابن مسرة نظريات أخرى كالقول بحدوث علم الله وقدرته، وفي كلامه ما

(١) انظر: إخبارالعلماء بأخبارالحكماء، للقفطي، تصحيح مُحَمَّد أمين الخانجي، ط مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ صـ١٣.

(٢) هو: مُحَمَّد بن الهذيل البصري العلاف، اشتهر بعلم الكلام، وأخذ الاعتزال عن عثمان بن خالد الطويل تلميذ واصل بن عطاء الغزال، له مقالات في الاعتزال ومجالس ومناظرات، توفي سنة (٢٣٥هـ) انظر ترجمته في: سير أعلام النبلاء: ٥٤٢/١٠، والأعلام: ١٣١/٧.

(٣) انظر: الفتوحات: ٤٣٦/٢.

يمكن أن يؤول إلى القول بإمكان اكتساب النبوة، أو الاستغناء عنها.[١]

وقيل كان ابن مسرة باطنيًا، يقول ابن أبي أصيبعة: (مُحَمَّد بن عبد الله بن مرة[٢] الجبلي الباطني من أهل قرطبة)[٣] والباطنية فرقة تنضوي تحت فرق الشيعة[٤]، ويرى المستشرق آثين بلاثيوس أن ابن مسرة تعود أفكاره وآراؤه إلى أفكار وآراء إحدى فرق الشيعة، منسوبة إلى ميمون بن ديصان القداح.[٥]

إذًا تنوعت وتوزعت أفكار ابن مسرة بين اتجاهات كثيرة، فابن عربي الحاتمي المعروف في الوسط الصوفي بالشيخ الأكبر وصاحب «الفتوحات المكية» يقول فيه: (ابن مسرّة الجبلي[٦] من أكبر أهل الطريق علمًا وحالًا وكشفًا)[٧] وهو يشي بما كان عليه ابن مسرة، فإن ابن عربي كما هو معلوم متهم داخل الأوساط السنية –خاصة السلفية منها– بمنزع بعيد عن الجادة، وهناك من ذهب إلى القول بكفره[٨]، ووصفه لابن مسرة بهذا يشي بالتقارب الفكري والمذهبي بينهما.

(١) انظر: في الفلسفة، صـ ٢٦١، بتصرف.

(٢) كذا في نشرة لويس شيخو وهو واضح التصحيف، وقد انتبه لهذا فساق له في الهامش ترجمة صحيحة، انظر: طبقات الأمم، لصاعد الأندلسي، بتحقيق لويس شيخو، ط الآباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢، صـ ٢١.

(٣) انظر: عيون الأنباء، ص ٦١.

(٤) ينظر في نشأتها: الفرق بين الفرق للبغدادي، صـ ٢٦٦، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي، صـ ٧٦، والملل والنحل للشهرستاني، ١/١٩٠، ١٩١، وفضائح الباطنية، للغزالي، صـ ١١، والشهرستاني والغزالي جعلا الباطنية أحد أسماء الإسماعيلية أتباع إسماعيل بن جعفر (١٤٣هـ) من آل البيت.

(٥) هو رأس الباطنية توفي سنة (١٧٠هـ) وللباطنية أقوال قبيحة، ذكرها الاسفراييني في التبصير في الدين، ص ١٤٢.

(٦) يرى المرحوم د. مُحَمَّد كمال جعفر أن ابن عربي هو الوحيد الذي يذكر ابن مسرة وينسبه للجبل، أي يقول: (ابن مسرة الجبلي) ويحدد –رحمه الله– الجبل بأنه جبل (السيرا، أو السيرانا) والحقيقة أن هناك من سبق ابن عربي بنسبة ابن مسرة للجبل على خلاف ما يراه د. جعفر، فيصفه بذلك ابن بشكوال (٥٧٨هـ) في الصلة: ١/٥٥٥، كما أن هناك من المؤرخين من ترجم له ناسبًا له للجبل، فالمراكشي (٦٤٧هـ) في الذيل والتكملة: ٢/٤٨٥، وابن الأبار (٦٥٨هـ) في التكملة: ١/١٤، ومواضع أخرى، والنباهي (٧٩٢) في قضاة الأندلس: ص ٢٠١، والمقري (١٠٤١هـ) في نفح الطيب: ٢/١٥٠. وغير ذلك. وانظر كلام د. كمال جعفر في كتابه (في الفلسفة دراسة ونصوص)، ص ٢٢٨، وهامش ٢٣١.

(٧) انظر: الفتوحات المكية: ١/١٤٨.

(٨) ألف في ذلك البقاعي كتابه «تنبيه الغبي إلى تكفير ابن عربي»، وحققه الشيخ عبد الرحمن الوكيل، وطبعته دار الكتب العلمية، ١٩٨٠.

لقد دار معتقد ابن مسرة الكلامي على عقيدة المعتزلة[١]، ودارت مواعظه السلوكية على كلام بعض كبار الصوفية.

يقول ابن حزم[٢](٤٥٦هـ): (كان مُحَمَّد بن عبد الله بن مسرة يوافق المعتزلة في القدر)، ثم ذكر ابن حزم أن من أتباعه من قال: إن الأجساد لا تبعث أبدًا وإنما تبعث الأرواح، ونقل عن حفيد أحد أتباعه قوله: (إن جدي كان يقول إن العرش هو المدبر للعالم، وإن الله تعالى أجلُّ من أن يوصف بفعل شيء أصلًا، وكان ينسب هذا القول إلى مُحَمَّد بن عبد الله بن مسرة وكثير من موافقيه ينسبون إليه القول باكتساب النبوة وأن من بلغ الغاية من الصلاح وطهارة النفس أدرك النبوة، وأنها ليست اختصاصًا أصلًا، وقد رأينا منهم من ينسب هذا القول إلى ابن مسرة، ويستدل على ذلك بألفاظ كثيرة في كتبه هي لعمري تشير إلى ذلك ورأينا سائرهم ينكر هذا، فالله أعلم).[٣]

هذا كلام ابن حزم في عرضه لفكر ابن مسرة وقد ساق بعضه، ورأى في بعضه شططًا ولذا عقبه بقوله: (ورأينا سائرهم ينكر هذا، فالله أعلم).

لكن السؤال: لماذا وضع ابن مسرة على رأس صوفية الأندلس رغم أن الغالب على طريقته أنها فلسفية كلامية؟

أقول: وُضع ابن مسرة على رأس الصوفية في الأندلس لما أن كلامه كان فيه ما يشبه

(١) المعتزلة فرقة إسلامية ترجع ظروف نشأتها إلى واصل بن عطاء (١٣١هـ)، ولهم خمسة أصول يجمعون عليها هي: التوحيد، والعدل، والمنزلة بين المنزلتين، وإثبات الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. انظر: انظر: اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، للرازي، تحقيق: د. علي سامي النشار، ط. دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢، ص ٣٩. وانظر أيضًا: الانتصار، لابن أبي الخير، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف، ط.: أضواء السلف، الرياض، ١٩٩٩: ٧٥٥/٣، والتبصير في الدين، الاسفرايني، تحقيق: كمال يوسف الحوت، عالم الكتب، بيروت، ١٩٨٣، ص: ٢١، والفرق بين الفرق، للبغدادي، ط دار الآفاق الجديدة – بيروت١٩٧٧، ص ١٥.، ومقالات الإسلاميين، لأبي الحسن الأشعري، ص: ٦٩، والتنبيه والرد، للملطي، تحقيق الشيخ زاهد الكوثري، ط: المكتبة الأزهرية، ١٩٧٧، ص٣٦.

(٢) هو: أبو مُحَمَّد، علي بن أحمد بن سعيد بن حزم، سمع من ابن مغيث، والطلمنكي،. وغيرهم، قال الحميدي: كان ابن حزم حافظا للحديث وفقهه، توفي سنة (٤٥٦هـ) انظر: سير أعلام النبلاء: ١٨٤/١٨، وجذوة المقتبس، ص ٣٠٨، والبداية والنهاية: ١٢/.

(٣)) انظر: الفصل في الملل والأهواء والنحل، لابن حزم، ط– مكتبة الخانجي: ٦٧/٤، ١٥١، وما بعدها باختصار.

كلام ذي النون، وأبي سعيد الإسكافي، ولعل ابن مسرة تسربل به ليتمكن من اجتلاب الأتباع وطيهم تحت لوائه.

وربما كان ذلك منه محاولة لإلباس الاعتزال زي التصوف، وأنه لا تعارض بينهما فهذا للمعتقد وهذا للسلوك.

**ولعل المطلب التالي يوضح كيف كانت طريقة ابن مسرة مزيجًا من الأفكار المتداخلة بين الكلام والتصوف:**

**المطلب الثالث: الوحي والعقل عند ابن مسرة:**

يرى ابن مسرة أن الوحي والعقل طريقان للوصول للمعرفة الإلهية؛ يبدأ الوحي من الأعلى ويبدأ العقل من الأسفل.

يقول ابن مسرة في ذلك: (ذكرت -رحمك الله- أنك قرأت في بعض الكتب: إنه لا يجد المستدل بالاعتبار من أسفل العالم إلى الأعلى إلا مثل ما دلت عليه الأنبياء من الأعلى إلى الأسفل، وتطلعت إلى تحقيق ذلك وتمثيله)[1].

وهذه القضية هي التي قام عليها كتاب التبصرة، أو كما سماه محققه د. كمال جعفر "الاعتبار".

وفي سبيل تأكيد ما سبق ذكر ابن مسرة أن الله -تعالى- نبّه وحضّ وكرّر ورغّب في كتابه على التفكر والتذكر والتبصر، والذين أخذوا بذلك قال فيهم: (....والله لقد أطلعتهم الفكرة على البصيرة، فشهدت لهم السماء والأرض بما نبأت به النبوة)[2].

أما كيف وصل هؤلاء إلى ذلك؟ فيصفه ابن مسرة بقوله: (فالعالم وخلائقه كلها درج يتصعد فيها المعتبرون إلى ما في العلى من آيات الله الكبرى، والمترقي إنما يترقى من الأسفل إلى الأعلى، فهم يترقون بتصعد العقول من مقامهم سفلا إلى ما انتهت إليه من صفات الأنبياء العلى، فإذا فكّروا أبصروا، وإذا أبصروا وجدوا الحق واحدًا على ما حكت الرسل -عليهم السلام- وعلى ما وصفوا به الحق عن الله وأنه متفق متصادق لا اختلاف فيه من

(١) انظر: رسالة الاعتبار، لمحمد بن مسرة الجبلي، تحقيق د كمال جعفر، ضمن كتابه "في الفلسفة"، ص: ٢٦٤.
(٢) انظر: السابق، ص ٣٦٥.

حيث ما أتيته فهو هو)[١].

ويضم ابن مسرة حقيقة الاعتبار عند المتأمل، وحقيقة الشرع عند المتشرع، ويعتبرهما طريقان لغاية واحدة يبدأ أحدهما من الأسفل والآخر من الأعلى غير أن الغاية واحدة، وعندها يصف اللقاء بقوله: (وجدوا الاعتبار يشهد للنبأ فيصدقه، ووجدوا النبأ موافقًا للاعتبار لا يخالفه، فتعاضد البرهان وتجلى اليقين، وأفضت القلوب إلى حقائق الإيمان)[٢].

إن خطورة هذا الكلام بادية لمن تبصر فيه واعتبر بمحتواه، وهو في حقيقته يفضي إلى القول بالاستغناء عن النبوة، أو أن هناك طرقًا للمعرفة تسع أصحابها لمعرفة ما جاء به النبي.

ولعل ابن مسرة لحظ هذا في كلامه فنفاه بقوله: (ولا يصل بشر إلى معرفة علم الكتاب حتى يقرن الخبر بالاعتبار ويحقق بالاستبصار)[٣].

وهو بهذا يرى ضرورة الجمع بين ما جاءت به الرسل وما علم بالتأمل والعقل.

**المطلب الرابع: حكمة الإشراق وأسرار الحروف عند ابن مسرة:**

إذا كان ما مر عن الوحي والعقل عند ابن مسرة وتصوفه، فحكمة الإشراق التي عرض لها المرحوم د. مصطفى عبد الرازق بقوله: (وأما حكم الإشراق فهي من العلوم الفلسفية بمنزلة التصوف من العلوم الإسلامية، كما أن الحكمة الطبيعية والإلهية منه بمنزلة الكلام منها)[٤] ليس ببعيد من ابن مسرة.

وحكمة الإشراق تعني نيل المعارف بغير فكر ولا نظم قياسي أو نصب تعريفي حدي أو رسمي، بل بأنوار إشراقية متتالية متفاوتة بسلب النفس عن البدن[٥].

ويترتب على هذه الحكمة نوع من السعادة يصفها بقوله: (السعادة العظمى والمرتبة العليا للنفس الناطقة هي معرفة الصانع بما له من صفات الكمال والتنزه عن النقصان، وبما

(١) انظر: السابق، صـ ٢٦٦.

(٢) انظر: السابق نفس الموضع.

(٣) انظر: السابق نفس الموضع.

(٤) انظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، د مصطفى عبد الرازق، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧، ص ٧٤.

(٥) انظر: حكمة الإشراق، صـ ٥.

صدر عنه من الآثار والأفعال في النشأة الأولى والآخرة)[١].

وتحقيق هذا له طريقتان هما: طريقة أهل النظر والاستدلال.

وثانيهما: طريقة أهل الرياضة والمجاهدات.

والسالكون للطريقة الأولى إن التزموا ملة من ملل الأنبياء -عليهم الصلاة والسلام- فهم المتكلمون، وإلا فهم الحكماء المشاؤون، والسالكون إلى الطريقة الثانية إن وافقوا في رياضتهم أحكام الشرع فهم الصوفية، وإلا فهم الحكماء الإشراقيون، فلكل طريقة طائفتان، وحاصل الأولى الاستكمال بالقوة النظرية والترقي في مراتبها الأربع)[٢].

فهذا تقسيم من أراد الترقي عند ابن مسرة.

أما استكناه الغيب والوقوف على أسراره فهو من خلال علم أسرار الحروف، وهو مرتبط ارتباطًا تامًا بنظرية الفيض، كما أن موضوعه لا يمكن الوقوف عليه [٣].

وعلم أسرار الحروف يحتل مكانة عند الصوفية كبيرة، ولهم حوله نظريات عديدة، وهو أحد علوم التصوف التي ترد على قلوب أصحابه عن طريق الفيض من الله مباشرة[٤].

وابن مسرة يعتبر أحد مصادر هذا العلم لواحد من أهم فلاسفة الصوفية، وهو ابن عربي؛ حيث يصرح بذلك في كتبه تصريحًا[٥].

وابن مسرة يعرض للحروف من حيث ذكر الأسرار لا الخواص كما عرض ابن عربي (٦٣٨هـ)[٦] لمذهبه فيها عرضًا يخلص منه إلى أن النظام الصوتي كالنظام الكوني، يقول د. كمال جعفر: (رأينا أن ابن مسرة في رسالة الاعتبار يذكر أن العالم كتاب يمكن أن يقرأه كل

(١) انظر: تمهيد لتاريخ الفلسفة، مرجع سابق، ص ٧٤.

(٢)انظر: السابق نفس الموضع.

(٣) انظر: د حامد طاهر، المقدمة التحقيقية لرسالة روح القدس، ص١٤١، ١٤٢ بتصرف واختصار.

(٤) السابق، ص ١٥٠.

(٥) انظر: السابق، ص ١٤٨.

(٦)مُحَمَّد بن علي، الطائي، الحاتمي، الأندلسي، سمع ببغداد ومكة ودمشق، ولد بالأندلس، وتوفي سنة: (٦٣٨هـ)من تصانيفه " الفتوحات المكية "، و"فصوص الحكم " ترجمته في: سير أعلام النبلاء ٤٨/٢٣، فوات الوفيات: ٤٣٥/٣.

واعٍ مستبصر)[١] وهو يربط بين حروف العلة الثلاثة وشكلها الكتابي في بيان مراتب النفس.

بهذه الأفكار صار ابن مسرة زعيمًا فكريًّا داخل الثغر الأندلسي، ورغم أن ما وصلنا منها من خلال ما وقفت عليه ووقف عليه الباحثون من مؤلفاته قليل؛ فالموجود منها منها يثير مشكلات عديدة تختلف حولها التفسيرات، وتتباين وجهات النظر.

فهو يرى مثلًا –بالإضافة لما سبق– أن الروح جسم هوائي لطيف روحاني بالروح وهو الحامل لجميع الأجسام والنفس مثاله وصورته[٢].

ورغم هذا التداخل الذي يبدو متناقضًا للوهلة الأولى؛ فنظريات المعتزلة، وكلاميات غيرهم، وروحانيات الصوفية تنصهر في بوتقة ابن مسرة، إذا يذهب ابن تيمية إلى أن: (..المعتزلة من أبعد الناس عن طريق أهل الكشف والخوارق، والصوفية يذمونها ويعيبونها)[٣].

لكن أرى أن ابن مسرة صادق بينه وبين نفسه، لا يتسربل بسربال يبغي من خلفه غاية، بل هو رجل صوفي، له فكر المعتزلة، وبعض أفكار حكماء الإغريق، وليس له أي ميول باطنية أو دواخل يخفيها عن الناظرين، يريد التوصل بها إلى مآرب.

ورغم هذا الانحراف في بيئة ظلت محافظة إلى حدٍ كبير على تراثية الفكر لا يحاول مثقفوها البعد عن النهج القاصد أو ركوب مركب الفلسفة، فإن الواضح أن ابن مسرة نجح في أن تكون له طائفة من الأتباع والمريدين توارثوا فكره ومنهجه، وظلوا متدينين به حينًا من الدهر.

كوّن ابن مسرة إذًا مدرسة عُرفت بالمسرية[٤] وأصبح مصدر قلق بثير السلطات، التي شأنها دائمًا الخوف من أصحاب الأتباع والمريدين، ودائمًا ترقب تصرفاتهم وتحاول التأثير فيها أو تحويل وجهاتها للركون لها والانصياع لمنظومتها أيًّا كان توجهها، وحذرها دائم منهم وتوجسها مستمر من أصحابها، وهو شيء أعرض لبعضه في المطلب التالي.

---

(١) انظر: في الفلسفة، د محمد كمال جعفر، ص ٢٤٢، وانظر ما أشار له في رسالة ابن مسرة صـ ٢٦٤.

(٢) انظر: في الفلسفة، صـ ٢٥٧.

(٣) انظر: مجموع الفتاوى: ٢/٨٥.

(٤)انظر: المعيار المعرب: ٢/٤٤٣.

**المطلب الخامس: أتباع ابن مسرة الذي عني المترجمون بذكرهم:**

إذا عدنا لكتب التراجم وجدنا ممن التف حول ابن مسرة: مُحَمَّد بن أحمد بن حمدون الخولاني القرطبي، المعروف بابن الإمام، قال ابن الفرضي (٤٠٣هـ): كان عالمًا باللغة، بليغًا لسنًا، حافظًا للأخبار والأنساب، سمع قاسم بن أصبغ، وابن أيمن، وكان مشهورًا باعتقاد مذهب ابن مسرة لا يتستر بذلك، وكان مولعًا بالتشريق[١] فى صلاته، توفي سنة (٣٨٠هـ)[٢].

ومنهم عبد الوهاب بن منذر (٤٣٦هـ)، قال ابن بشكوال: كان ناسكًا عفيفًا منقبضًا عن الناس، كثير الصلاة، مذكرا بالله -تعالى-، نُسب إلى مذهب ابن مسرة الجبلي، وانحرف عن الفقهاء المالكيين؛ فتكلموا فيه، وكان يؤم بمسجد بدر داخل المدينة، توفي سنة (٤٣٦هـ) [٣].

ومنهم: أبان بن عثمان الشذوني (٣٧٧هـ) قال ابن الفرضي (٤٠٣ هـ): سمعَ: من مُحَمَّد بن عبدِ الملِك بن أيْمَنَ؛ ومن قاسِم بن أصْبَغَ، وسعيد بن جابِرٍ، وغيرهم، وكان: يُنْسَبُ إلى اعتقادِ مذهبِ ابنِ مَسَرّةَ [٤].

ومنهم أضحى بن سعيد: ( من أهل قرطبة مال إلى مذهب ابن مسرة، وأخذ كتبه ولم يلقه، وكان من أهل الخير، والانقباض معلمًا بالقرآن)[٥].

ومنهم: أحمد بن فرج بن منتيل بن قيس (٣٤٤هـ) من أهل قرطبة، كان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة[٦]، ومنهم: عبد العزيز بن حكم (٣٨٧هـ)[٧] ومنهم مُحَمَّد بن مفرج بن عبد الله (٣٧١هـ) قال ابن الفرضي (٤٠٣ هـ): كان يعتقد مذهب ابن مسرة ويدعو

(١) التشريق هو تولية الوجه وجاه الشرق الفلكي.

(٢) انظر: بغية الوعاة: ٢٢/١.

(٣) انظر: الصلة: ٥٥٥/١.

(٤) انظر: تاريخ علماء الأندلس: ٢٢/١.

(٥) انظر: التكملة لكتاب الصلة، لأبي عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله ابن الأبار (٦٥٨هـ)، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر للطباعة، لبنان، ط ١٤١٥: ١٧٣/١.

(٦) انظر: السابق: ٥٣/١.

(٧) انظر: السابق: ٣٢٢/١.

إليه، ومنهم مُحَمَّد بن عبد الله بن عمر بن خير القيسى (٣٨٢هـ).[١]

وقد ذكر المترجمون جملة من أصحاب ابن مسرة ممن اختص بمرافقته أو صحبته، غير أنهم لم يصرحوا بأنهم كانوا على ما كان عليه، مثلما صرحوا فيمن ذكرت، وإن كانت الصحبة والمرافقة داعية غالبًا للتوافق الفكري والذهني.

ومما يؤكد كثرة أتباع ابن مسرة –وتحول تيارهم إلى ظاهرة تملأ المجتمع– ما حدث من القاضي المالكي أبي بكر مُحَمَّد بن زرب (٣٨١هـ) فقد قيل: إنه أحضر جملة من أتباع ابن مسرة واستتابهم، وأحرق كتبه، وكان لابن زرب (٣٨١هـ) كتابًا وضعه في الرد على ابن مسرة ذكر ذلك صاحب «ترتيب المدارك»[٢].

إن ما مضى يدل دلالة واضحة على أن فكر ابن مسرة قد وجد تربة ترعرع فيها، ونما وتشعبت بين الأتباع والمريدين جذوره، كما شكّل ظاهرة فكرية وسلوكية في المجتمع الأندلسي، استدعت أن يتصدى لها القاضي ابن زرب بالفعل والتأليف، وقد ظلت قائمة فترة من الزمن، يدل على ذلك وفيات بعض المترجم لهم من أتباعه، كما أن ابن حزم المتوفى سنة (٤٥٦هـ) قد أخبر أن أبا العاص حكم بن المنذر بن سعيد القاضي أخبره عن إسماعيل بن عبد الله الرعيني أنه كان ينكر بعث الأجساد، قال: وكان قبل ذلك يجمعهما مذهب ابن مسرة في القدر[٣]؛ فوجود فكر ابن مسرة هذه الفترة الزمنية التي تربو على المائة وثلاثين عامًا –فضلًا عما ذكر آنفًا في عبد الوهاب بن منذر المتوفى عام (٤٣٦هـ)– يدل دلالة واضحة على أثر ابن مسرة وأثر دعوته وبقائها فترة من الزمن غير يسيرة.

لكن إذا أردت أن أعطي تفسيرًا لهذا الفكر المسرى: كيف تواجد؟ وكيف انتشر؟ وكيف وجد تربة خصبة؟ فإننا نجد أن هذا يعود لأمرين:

الأول هو: كلامه الذي شابه به كلام ذي النون، والنهرجوري، وهو كلام بطبيعته يحرك سواكن النفس، ويدفع بالنفوس الجامحة إلى ركوب مركب الجادة والتعلق بما عند الله تعالى،

(١) انظر: السابق: ٢/٩٨.
(٢) ترتيب المدارك: ٧/ ١١٥.
(٣) انظر: الفصل: ٤/٦٧.

وأصحاب هذا الكلام دائمًا نراهم في كل عصر تكثر أتباعهم خاصة من العوام والراغبين سلوك الطريق إلى الملأ الأعلى.

الثاني –وهو أهم من سابقه–: أن ابن مسرة لم يجتلب أتباعه من العوام فقط، بل كانت له رؤية وأفكار أجاد صياغتها؛ فالتف بجوار العوام –الملتفين من حوله– مجموعة أخرى من حمله العلم وطلابه، وظلت هذه الأفكار تتوارثها الأجيال إلى أن نبتت مرة أخرى بصورة تناسب العصر على يد ابن طفيل وابن باجه وابن قسي شيخ ابن عربي الذي شرح بعض كتبه وهو شيء أعرض له في المطلب التالي:

**المطلب السادس: أثر ابن مسرة في متصوفة الفلاسفة من بعده:**

كان تصوف ابن مسرة وفلسفته حاضرين حضورًا بالغًا عند من اختلط عندهم التصوف بالفلسفة، فمن هؤلاء: ابن طفيل (٥٨١ هـ)، الذي بدا حضور ابن مسرة عنده في رسالته «حي بن يقظان»، وقد أشار ابن طفيل(٥٨١ هـ) إلى محنة الفلسفة في بلاده من خلال ما اعتبره محنة لابن مسرة، بل وظف رسالة " الاعتبار " لابن مسرة في رسالته "حي بن يقظان" في مواضع شتى.

كما أن ابن مسرة كان حاضرًا عند ابن باجه (٥٣٣هـ) من قبل ابن طفيل، والخطى التي سلكها ابن باجه في التوفيق بين الدين والفلسفة من خلال المنحى الصوفي في تلقي المعارف هو أعظم الجوانب التي ترى في فكر ابن طفيل وابن باجه، وقد استفاداها بلا ريب مما عند ابن مسرة.

ولا شك أن طريقته طورت فيما بعد حتى وصلت للثائر ابن قسي صاحب كتاب «خلع النعلين » الذي يعتبر شيخ الإسلام ابن تيمية (٧٢٨هـ) أن هذا قد اجترّه ابن قسي من الغزالي، لكن ما سقناه في طريقة ابن مسرة كان أقرب إلى مخيلة ابن قسي وفكره، ولعله جمع بين ما للغزالي وما لابن مسرة إلا أن شيخ الإسلام لم يشر لابن مسرة؛ لأن أمره لم يشتهر بالمشرق، وربما لم يطلع على فكره المشارقه بشكل كافٍ.

ولقد كانت طريقة ابن مسرة وكونه عني بتربية الأتباع وبث أفكاره في الجماهير، فضلًا عن بعد طريقته عن الطريقة المحافظة لفقهاء المالكية وغيرهم من أهل الأندلس، أقول: كان

للعلماء والحكام موقف ومجابهة تجاه ابن مسرة وأتباعه يجمل أن أتعرض له في الفصل التالي.

## الفصل الثاني: علماء الأندلس في مواجهة ابن مسرة وصوفيته

### المطلب الأول: مجابهة العلماء لابن مسرة وأفكاره:

لم يقف العلماء من ابن مسرة وأتباعه موقفًا سلبيًّا، بل كان ما اعتبروه من خروج طريقته عن طريقة الفقهاء والقضاة المحافظة -داعيًا أن يقفوا من دعوته وأتباعه موقفًا حذرًا، تتبعوا فيه صاحب الدعوة وأشياعه من بعده، ولعل هذه الوثيقة تكشف بعض ما نحن بصدده:

**الوثيقة المرفوعة للناصر (٣٥٠هـ) في شأن ابن مسرة ودلالتها:**

عرض الأستاذ مُحَمَّد عبد الله عنان-رحمه الله- لوثيقة تكشف عن الحالة التي كان عليها أتباع ابن مسرة، وكيف كان نظر إليهم النظام الحاكم آنذاك؛ حيث عرض لوثيقة أنشأها عبد الرحمن الزجالي للخليفة الناصر (٣٥٠هـ)، أنفذها إلى الآفاق في شأن أتباع ابن مسرة الجبلي، وهي وثيقة طويلة، مفادها: أن أتباع ابن مسرة قالوا بخلق القرآن، وآيسوا الخلق من رحمة الله -تعالى- فأكذبوا التوبة، وأبطلوا الشفاعة، كما راموا تحكيم عقولهم في كتاب الله -تعالى- خاصة في المتشابه منه، كما أنهم تطاولوا عل السلف، وأساءوا القول في أهل الحديث [(١)].

وهذه الوثيقة التي هي أهم مصدر يوثق به في التعرف على أفكار ابن مسرة وأتباعه - تكشف أن حركة ابن مسرة لم تكن خاملة تقتصر على الأفكار والسلوكيات التي يبثها صاحبها ولا يعنيه من يستجيب ممن يرد، بل هي تنم عن أن المسرية صارت اتجاهًا له أشياع يتجوس النظام القائم من خطره، والأنظمة تتحرك حين يلتف الناس خلف داعية ويتأثروا به، فعتبر في هذا خطرًا تظن أنه يهدد سلامتها وانفرادها واستحواذها على الحكم، والأفكار والمبادئ ما دامت مقتصرة على أصحابها ولا ينشغل أصحابها بالسياسة أو إثارة العامة فإن السلطات لا تتوجس منها وتتركها تسير حيث توجهت؛ لأن هذا من حسن سياسة العامة عندهم، ولذا فالحركات السلبية التي لا تعتبر بالمعاني الإنسانية المركوزة في الفطر السليمة

(١) انظر: دولة الإسلام في الأندلس، مُحَمَّد عبد الله عنان، ط الهيئة العامة للكتاب، ط ٢٠٠٣: ٧٠٨/٢، وما بعدها. وانظر أيضًا: تاريخ الفلسفة الإسلامية في المغرب، د/مُحَمَّد إبراهيم الفيومي، ط المعارف، ط أولى، ١٩٩٢، ص ١٩٩، وما بعدها.

تتمدد تحت سمع وبصر هذه الأنظمة لأنها تساعدها في اقتياد العامة.

ويبدو أن اتجاه ابن مسرة على قدر إزعاجه للسلطات، فإنهم اعتمدوا على تقرير الفقهاء في الحظر، حتى يضمنوا انصياع العامة له؛ ولذلك جاءت الوثيقة تحاول إثارة عواطف العوام واستجلاب العلماء للالتفاف حولها، بذكر التطاول على السلف، وتأويل القرآن، وغلق باب التوبة.

وصدى الوثيقة –رغم ما حوته من آراء ونظريات– سياسي، وغرضها كذلك أيضًا.

لم تكن هذه الوثيقة وحدها هي العثرة التي وضعت في طريق المسرية، بل قد اعتنى بالرد على ابن مسرة وتتبع أفكاره وتلاميذه بقية من أهل العلم، وهذا يعني أن ابن مسرة قد تحول بفكره وكتبه إلى ظاهرة استوقفت العلماء، مما يدل على خطورة شأنه وأثره.

ولقد دلفوا المترجمون والمؤرخون إلى حصن ابن مسرة، وتتبعوا في تراجمهم أتباعه ممن حازوا العلم والشهرة في المجتمع فنسبوه إلى طريقته على سبيل الذم تارة أو البيان لما كان عليه تارة أخرى، كما اعتنوا بمن رد عليه أو ألّف في الرد عليه، وهو أمر أتعرض له في المطلب التالي.

**المطلب الثاني: ثناء المترجمين على من رد على ابن مسرة:**

لقد اعتبر المترجمون الرد على ابن مسرة وأشياعه من مآثر من يترجمون لهم، ففي ترجمة ابن زرب (٣٨١هـ) يذكر النباهي (٧٩٢هـ): أنه وضع كتابًا في الرد على ابن مسرة، واستتاب بعض أتباعه، وأحرق ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه)[(١)]، وكان ابن زرب قاضي الجماعة؛ على ما ذكر ابن فرحون (٧٩٩هـ)[(٢)] في ترجمته، وقد بالغ في الثناء عليه فقال: (كان ابن زرب أحفظ أهل زمانه لمذهب مالك، وكان القاضي ابن السليم يقول له: لو رآك ابن القاسم[(٣)] لعجب منك، ولما مات ولي مكانه قضاء الجماعة سنة إلى أن مات، قال:

(١) انظر: تاريخ قضاة الأندلس، ص ٧٨.

(٢) هو: برهان الدين، إبراهيم بن فرحون، اليعمري، تولى قضاء المدينة المنورة، من مؤلفاته: الديباج المذهب، وتبصرة الحكام. توفي سنة (٧٩٩هـ)انظر: توشيح الديباج، للقرافي، تحقيق: الدكتور علي عمر، ط مكتبة الثقافة الدينية– القاهرة، ط١: ١٤٢٥هـ، ص ٢٣.

(٣) هو: عبد الرحمن بن القاسم، عالم الديار المصرية، صاحب الإمام مالك، روى عن: مالك، وروى عنه: أصبغ، والحارث بن مسكين، وسحنون، وابن عبد الحكم، توفي سنة (١٩١هـ). ترجمته في: ترتيب المدارك للقاضي عياض: ٢٤٤/٣، =

(وله رد على ابن مسرة)[١]، وابن زرب كان من كبار القضاة وخطباء المنابر بالأندلس، ولي القضاء بقرطبة (سنة ٣٦٧هـ) في أيام المؤيد الأموي (هشام)[٢]، وذكر النباهي أيضًا عن ابن زرب أنه: (اعتنى بطلب أصحاب ابن مسرة، والكشف عنهم، واستتابة من علم أنه يعتقد مذهبهم؛ وأظهر للناس كتابًا حسنًا وضعه في الرد على ابن مسرة، وكان سنة (٣٥٠هـ)، استتاب جملة جيء بهم إليه من أتباع ابن مسرة؛ ثم خرج إلى الجامع الشرقي، وقعد هناك؛ فأحرق بين يده ما وجد عندهم من كتبه وأوضاعه؛ وهم ينظرون إليه في سائر الحاضرين.

وقد اعتبر رد ابن زرب على ابن مسرة من مآثره التي حرص المترجمون على إبرازها، فقد ذكر ذلك القاضي عياض في ترتيب المدارك[٣] والذهبي في سير أعلام النبلاء[٤] ... وغيرهم.

وممن اعتنى بالرد على ابن مسرة أيضًا: عبد الله بن مُحَمَّد بن نصر بن أبيض، أبو الحسن الطليطلي[٥]، ومنهم أيضًا أبو بكر مُحَمَّد بن الحسن الزبيدي الإشبيلي النحوي (٣٧٩هـ) صاحب طبقات النحويين، قال السيوطي: له كتاب الرد على ابن مسرة وأهل مقالته، سماه: هتك ستور الملحدين[٦]، وواضح من عنوان الكتاب ما كان يراه بعض العلماء في أفكار ابن مسرة وموقفهم منها، وأبو عمر الطلمنكي (٤٢٩هـ) أول من أدخل علم القراءات إلى الأندلس، ذكر القاضي عياض في ترجمته –ضمن كتبه– كتابًا في: الرد على ابن مسرة[٧].

ومنهم أيضًا عبد الله بن مُحَمَّد بن نزار، قال ابن بشكوال: جمع كتابًا في الرد على مُحَمَّد بن

=

طبقات الفقهاء، صـ ١٥٠، وسير أعلام النبلاء: ١٢٠/٩، وشذرات الذهب: ٣٢٩/١.

(١) انظر: الديباج المذهب: ٢٦٤/١.

(٢) انظر: ترجمته في: تاريخ علماء الأندلس: ٩٤/٢، وترتيب المدارك: ١١٤/٧، وتاريخ قضاة الأندلس: ٧٧، وسير أعلام النبلاء: ٤١١/١٦، وبغية الملتمس: ١٤٦، والديباج المذهب: ٢٣٠/٢، وشذرات الذهب: ١٠١/٣، وشجرة النور الزكية: ١٠٠/١.

(٣) انظر: ترتيب المدارك: ١١٥/٧.

(٤) انظر: سير أعلام النبلاء: ٤١١/١٦.

(٥) انظر: وفيات الأعيان، لابن خلكان، تحقيق إحسان عباس، الطبعة: ١، ١٩٧١: ٣٧٢/٤، وبغية الوعاة: ٦٠/٢.

(٦) انظر: بغية الوعاة: ٨٥/١.، وانظر أيضا: وفيات الأعيان، لابن خلكان ٣٧٢/٤.

(٧) ترتيب المدارك: ٧/ ٣٩.

عبدالله بن مسرة، أكثر فيه من الحديث والشواهد، وهو كتاب كبير حفيل[١].

لقد حاصر فقهاء الأندلس ابن مسرة، وحاصروا أفكاره وآراءه حتى انزوى إلى الجبل، حتى سُمي ابن مسرة الجبلي، فابن بشكوال (٥٧٨ هـ) يقول في عبد الوهاب بن منذر (٤٣٦هـ): نسب إلى مذهب ابن مسرة الجبلي[٢]، وكذلك ابن الأبار (٦٥٨هـ) يقول في أحمد بن غانم: (رحل مرافقًا أبا عبد الله بن مسرة الجبلي)[٣] والمراكشي (٦٤٧هـ) يقول في ترجمة عون بن يوسف: طليطلي سكن قرطبة؛ صحب مُحَمَّد بن مسرة الجبلي[٤].

وبهذا انزوت المسرية وتيارها الجارف الضارب في عمق المجتمع حتى بزغت في شكل فسائل أخرى ناسبت الزمن الذي نبتت فيه لكن نختم المبحث بهذه الترجمة التي قدمها معاصر قريب لابن مسرة من باب وضع الحقيقة كاملة قيد البحث.

إذا كان ابن مسرة قد لقي معاناة في نشر آرائه الفكرية والعقدية والسلوكية، وهو ما يستنتج من كلام من ترجم له، فقد كان خليقًا بابن حارث الخشني المتوفى تقريبًا سنة (٣٦١هـ)، وهو أقدم من وقفت له على ترجمة لابن مسرة، وكتابه لم يقف عليه أو يعرض له من ترجم لابن مسرة، أو تناول فكره من المحدثين؛ أن يبتّ القول فيه، خاصة وأنه قريب إلى حد كبير بزمن ابن مسرة، وما زالت آراؤه في طور الشباب، هذا المصدر نقل كلامه المترجمون، وقد كنت أرى أن به متوسعًا عما ذكروه، إلا أن خلاصة ما قاله ابن حارث الخشني في ترجمته قوله: (كان مذهب مُحَمَّد بن مسرة في علمه[٥] الزهد والانقباض، وفي علمه النظر والاستنباط، تصرف في العلوم متصرف الحاذق ونظر فيها نظر الماهر، وألف في تصحيح الأعمال على مذهب التقى في محاسبة النفوس على حقيقة الصدق، وفي التنبيه على وجوه المداهنة وأبواب المخادعة على معنى الكشف والتفريع كتبًا كثيرة، مشاكلة لكلام المتقدمين من أهل العلم الباطن ككلام ذي النون الأخميمي، وأبي سعيد الإسكافي ونظرائهما

(١) انظر: الصلة: ٣٨٨/١.

(٢) انظر: الصلة: ٥٥٥/١.

(٣) انظر: تكملة الصلة، لابن الأبار، تحقيق عبد السلام الهراس، ط دار الفكر للطباعة، ١٤١٥: ١٤/١.

(٤) انظر: الذيل والتكملة، للمراكشي، تحقيق إحسان عباس، ط دار الثقافة، بيروت، ط ١٩٦٥: ٤٨٥/٢.

(٥) كذا فيما وقفت عليه ولعل الصواب (عمله).

من أهل ذلك العلم، وكتبه لمن تأملها تشهد له بمطالعة غير ما علم من العلوم).

قال: (والنّاس في ابن مسرة فرقتان: فرقة تبلغ به مبلغ الإمامة في العِلم والزّهد، وفرقة تطعن عليه بالبدع لما ظهر من كلامهِ في الوَعْد والوَعِيد، ولتأويله في آي القرآن وكتب السنن، ولخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأنْدَلُس الجارية على مذهب التقليد والتسليم).[١]

هذا غاية ما ذكره ابن حارث فيه، فلم يعرض لكونه تشرب فكر المعتزلة الذي عرض له ابن حزم من بعده، وكلامه ليس فيه كبير لوم عليه، وترجمته له ضمن الفقهاء والمحدثين تعني أنه لم يعب عليه كثيرًا مما كان عليه.

**المطلب الثالث: رد المشرقيين على ابن مسرة:**

لم يكن فكر ابن مسرة –الذي هو وليد البيئة الأندلسية– مقتصرًا عليها، ولغطه الذي أحدثه داخلها محدودًا بالبحر لا يتجاوزه، بل إخال أن الرحلات العلمية التي لا تتوقف، ورحلات الحج المتواصلة قد أتاحت لهذا الفكر أن ينتشر، ويتجاوز البيئة التي ترعرع فيها، ويدل على ذلك أن جماعة من أهل المشرق ربما وصلت لهم أفكار ابن مسرة أو أظهر أتباعه بعضها، مما حدا ببعض أهل العلم أن ينبروا للرد عليها وعلى أصحابها، يقول ابن الفرضي (٤٠٣ هـ): (وكان له (ابن مسرة) لسان يصل به إلى تأليف الكلام وتمويه الألفاظ وإخفاء المعاني، وقد رد عليه جماعة من أهل المشرق منهم: أحمد بن مُحَمَّد بن زياد الأعرابي(٣٤٠هـ)[٢] وأحمد بن مُحَمَّد بن سالم التسترى [قال]: ولأحمد بن خالد في الرّد عليه صحيفة أخبرنا بها عنه أبو مُحَمَّد الباجيّ)[٣].

لم يكن تردد ابن مسرة إلى المشرق –الذي سبق في عبارة الحميدي– كأي تردد؛ غايته طلب العلم وطلب علو السند، كما هو الشأن عند الخارجين لطلب العلم في تلك الديار،

(١) انظر: أخبار الفقهاء والمحدثين بالأندلس، لابن حارث الخشني، رسالة مخطوطة بكلية الآداب جامعة سيدي مُحَمَّد بن عبد الله بفاس، تحقيق الباحث خالد سقاط، سنة جامعة ١٩٩٢: ٢٧٤/١.

(٢) هو: أبو سعيد، أحمد بن مُحَمَّد بن زياد بن بشر بن درهم، ابن الأعرابي: مؤرخ من علماء الحديث؛ من أهل البصرة. تصوف وصحب الجنيد، وانتقل إلى الحجاز فكان شيخ الحرم المكي وتوفي بمكة سنة (٣٤٠هـ). انظر: الأعلام ٢٠٨/١. التقييد لمعرفة رواة السنن والمسانيد، ص ٢٨.

(٣) انظر: تاريخ علماء الأندلس: ٦٨٨/٢.

بل كان خروجه في بعضه فرارًا مما واجهه في بلاده، وفي عبارة ابن الفرضي (٤٠٣ هـ) ما يكشف عن ذلك بجلاء يقول: (اتّهم بالزَّنْدقة فخرج فَارًّا، وتردد بالمشْرِق مدة)[١].

وهو في تنقلاته لم يكفّ عن نشر صوفيته المختلطة بقضايا علم الكلام وحكمة قدماء اليونان، حتى استنفر بعض المشرقيين الذي اختلط بهم على ما مرّ.

بهذا اكتملت تلك الحلقة التي تعد باكورة الفكر الصوفي في الأندلس، ولئن تشعب عنها أشياء أخر فإن لها محلًا آخر من البحث والدراسة لا تتسع لها صفحات البحث الذي أختمه بالنتائج والتوصيات:

(١) انظر: تاريخ علماء الأندلس: ٦٨٧/٢.

**أهم نتائج البحث**

خلص الباحث من خلال تلك الدراسة إلى النتائج والتوصيات التالية:

١- تعتبر البدايات الأولى للتجربة الصوفية في الأندلس غير متشابهة في كل الجوانب مع التجربة المشرقية.

٢- كان للفقهاء المالكيين دور كبير في التصدي للكثير من الأفكار الخارجة عن الطريقة المثلى التي اتبعها أكثرهم وألزموا بها الحكام والعوام.

٣- يعتبر ابن مسرة الجبلي هو رائد التجربة الصوفية، وقد اختلط تصوفه ببعض قضايا علم الكلام، والفلسفة القديمة.

٤- لا يزال الكثير من تراث الأندلس يحتاج إلى البحث والتنقيب.

**توصي الدراسة بالتوصيات التالية:**

١- ضرورة التنقيب والبحث عن بقايا التراث الأندلسي.

٢- ضرورة معرفة ظروف المجتمع الأندلسي لمحاولة فهم تصرفات الفقهاء فيه.

## ثَبَت بأهم المصادر والمراجع

١- ابن أبي أصيبعة (علي بن خليفة بن يونس الخزرجي الأنصاري ٦٦٨هـ)، عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: د. نزار رضا، الناشر: دار مكتبة الحياة – بيروت.

٢- ابن أبي الخير (يحيى بن أبي الخير العمراني ٥٥٨هـ )، الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار، تحقيق سعود بن عبد العزيز الخلف، الناشر أضواء السلف، الرياض، ١٩٩٩م.

٣- ابن الأبار (أبو عبد الله مُحَمَّد بن عبد الله ٦٥٨هـ)، تكملة الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، ط- دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٤١٥هـ- ١٩٩٥م.

٤- الإسفراييني (طاهر بن مُحَمَّد٤٧١هـ)، التبصير في الدين وتمييز الفرقة الناجية عن الفرق الهالكين، تحقيق: كمال يوسف الحوت، ط عالم الكتب – بيروت ط١، ١٩٨٣م.

٥- الأشعري (علي بن إسماعيل ٣٢٤هـ)، مقالات الإسلاميين، تحقيق: هلموت ريتر، ط دار إحياء التراث العربي – بيروت، ط٣.

٦- بالنثيا (آنخل جانثلث)، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، ط – مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة.

٧- ابن تيمية، (أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام ٧٢٨ هـ)، الصفدية، تحقيق: د. مُحَمَّد رشاد سالم، ط – مكتبة ابن تيمية، القاهرة ط- الثانية، ١٤٠٦هـ.

٨- ابن بشكوال (خلف بن عبد الملك بن مسعود ٥٧٩هـ) الصلة، تحقيق: إبراهيم الأبياري، الناشر: دار الكتاب المصري – دار الكتاب اللبناني، ط١، ١٤١٠هـ / ١٩٨٩م.

٩- البغدادي (عبد القاهر بن طاهر بن مُحَمَّد بن عبد الله البغدادي التميمي، ٤٢٩هـ)، الفرق بين الفرق، ط. دار الآفاق الجديدة – بيروت.

١٠- جعفر، (الأستاذ الدكتور كمال)، في الفلسفة دراسة ونصوص، مكتبة دار العلوم، ١٩٧٦م.

١١- ابن حزم، (علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب ٤٥٦هـ)، الفصل في الملل والأهواء والنحل، ط مكتبة الخانجي، القاهرة.

١٢- الذهبي، (شمس الدين مُحَمَّد بن أحمد بن عثمان الذهبي٧٤٨هـ)، سير أعلام النبلاء، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، ط مؤسسة الرسالة، ١٤١٣ هـ ١٩٩٣م.

١٣- الرازي، (مُحَمَّد بن عمر البكري٦٠٦هـ)، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين، تحقيق: د. علي سامي النشار، ط - دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٠٢م.

١٤- الزركلي، (خير الدين بن محمود بن مُحَمَّد ١٣٩٦هـ)، الإعلام، ط: دار العلم للملايين، ط١٥، ١٩٨٠م.

١٥- سقاط، (الباحث خالد)، أخبار الفقهاء والمحدثين بالأندلس، لابن حارث الخشني، رسالة مخطوطة بكلية الآداب جامعة سيدي مُحَمَّد بن عبد الله بفاس، ١٤١٢ - ١٩٩٢م.

١٦- السيوطي، (عبد الرحمن بن أبي بكر بن مُحَمَّد ٩١١ هـ)، بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة، تحقيق مُحَمَّد أبو الفضل إبراهيم، الناشر المكتبة العصرية، صيدا، لبنان.

١٧- الشهرستاني (مُحَمَّد بن عبد الكريم بن أحمد ٥٤٨هـ) الملل والنحل، تحقيق: مُحَمَّد سيد كيلاني، ط دار المعرفة - بيروت، ١٤٠٤م.

١٨- صاعد الأندلسي، (صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد ٤٦٢ هـ)، طبقات الأمم، تحقيق لويس شيخو، ط الأباء اليسوعيين، بيروت، ١٩١٢م.

١٩- عبد الرازق، (الأستاذ الدكتور مصطفى)، تمهيد لتاريخ الفلسفة الإسلامية، ط الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠٧م.

٢٠- ابن عربي، (مُحَمَّد بن علي ابن العربي٦٣٨هـ)، الفتوحات المكية ط - الهيئة المصرية العامة للكتاب - ١٤٠٥، ١٩٨٥، تحقيق د- عثمان يحيى، و ط - دار الكتب العربية الكبرى بمصر .

٢١- عياض، (القاضي: ابن موسى اليحصبي)، ترتيب المدارك وتقريب المسالك، تحقيق: مُحَمَّد بن تاويت الطنجي، ط وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمغرب ط٢: ١٤٠٣هـ.

٢٢- الغزالي، (مُحَمَّد بن مُحَمَّد بن مُحَمَّد ٥٠٥هـ)، فضائح الباطنية، تحقيق: د. عبد الرحمن بدوي، الناشر: مؤسسة دار الكتب الثقافية - الكويت.

٢٣- ابن فرحون، (إبراهيم بن علي بن مُحَمَّد ٧٩٩هـ)، الديباج المذهب، ط. دار الكتب العلمية، بيروت.

٢٤- ابن الفرضي، (عبد الله بن مُحَمَّد الأزدي٤٠٣هـ)، تاريخ علماء الأندلس، ط الدار المصرية للتأليف والترجمة، ١٩٦٦م، بتحقيق عزت العطار القاهرة، ط ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م.

٢٥- القفطي، إخبارالعلماء بأخبارالحكماء، تصحيح مُحَمَّد أمين الخانجي، ط مطبعة السعادة، ١٣٢٦هـ.

٢٦- مُحَمَّد إبراهيم الفيومي (الأستاذ الدكتور)، تاريخ الفلسفة الإسلامية، ط دار المعارف، ط١، ١٩٩٢

٢٧- المراكشي، (أبو عبد الله مُحَمَّد المراكشي)، الذيل والتكملة، تحقيق: إحسان عباس، الناشر: دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط١، ١٩٦٥م.

٢٨- ابن مسرة، (مُحَمَّد بن مسرة الجبلي ٣١٩هـ)، رسالة الاعتبار، تحقيق د. كمال جعفر، ضمن كتابه "في الفلسفة"، ط دار العلوم، ط ١٩٧٦م.

٢٩- المقري، (أحمد بن مُحَمَّد المقري التلمساني)، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٦٨م.

٣٠- الونشريسي، (أحمد بن يحيى ٩١٤ هـ)، المعيار المعرب، والجامع المغرب، بتحقيق د مُحَمَّد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.

٣١- الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير د سلمى الخضراء، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٨.